الدكتور زكى المحاسنى
فى نفحاته الاندلسية

للاديب المؤلف وأستاذ الأدب الاندلسى
الدكتور محسن جمال الدين
كلية الآداب ـ بغداد

مثلما يسقط (الشهيد) فى ساحة النضال، وهو يحمل بيده راية العزة، والكرامة، فى سبيل وطنه، وأمته. سقط ذلك الفارس المعلم فى ميدان الأدب، والنقد، والشعر، والملحمة والسيرة، الاستاذ الصديق المرحوم (الدكتور زكى المحاسنى). بعد أن خلف وراءه أسفارا وصفحات، مضمخة بطيب الحديث، وروعة الاسلوب، ورقة الحاشية، وسعة الاطلاع، وأمانة الكلمة، والتراث، وشموخ الكرامة.

منذ ثلاثين عاما عرفت الدكتور المحاسنى، وهو الذى نور باسمه الصفحات السود من أعمدة الصحف، وجداول المجلات. فما أن تطل على العالم العربى، والفكر الشرقى مجلة اسبوعية، أو شهرية محترمة، ذات طابع أدبى أو فكرى، الا وتتملى النواظر اسم الدكتور المحاسنى، فى الصدارة.

فهو كاطلالة الفجر فى بواكير نيسان، ونفحة العطر فى جنائن (جنة العريف)، وجمال الشروق فى مشارف (الغوطة)، ونسمة العافية فى رياض (الطائف)، وعبق الشذا فى أرباض (بغداد)، وأصالة الارز فى أعالى (لبنان)، وهدهدة الماء فى نهر (النيل)، وارتفاع السمو فى هضاب (المغرب) العربى، وأريج الايمان فى (الحرمين الشريفين)!!

هو (كطائر الحب)، لطيف النفس، عذب اللفظ، جميل المحيا، رقيق الشعور، تستهويه كلمة الصداقة، وتشده أواصر الاخوة والمحبة، مع روح طاهرة فى الظاهر والباطن.

هو أشبه بصفات الصوفيين الطيبين، الذين لا يحملون الحقد فى جنبات صدورهم، ولا الأنانية فى طيات أرديتهم، ولا الغرض المادى فى طريق أهدافهم.

لم يسخر قلمه يوما لدرهم زائل، ومادة تصرف. ولم يبع ضميره لدنيا لعوب، وأغراض تنقضى. بل كان قانعا بما لديه، يلبى صوت الأدب الحى، ويسعد القلب المكلوم، ويرسل البسمة للباكين، والسماحة والود للمتباغضين، والتواضع للمغرورين!!

هو سفير للبلاد العربية وثقافتها بلا سفارة. له مكانته فى العالم الاوروبى وأنديته الادبية، وبين أسماء اللامعين من مفكريه ومستشرقيه.

ومن علو منزلته فى نفوسهم ان المستشرق الاسبانى الكبير (رامون

منيدث بيدال) منحه الكثير من تقديره ومراسلاته الأخوية، واعتبره أحد زملائه فى الدراسات الاندلسية الاسبانية. كما أن الدكتور المحاسنى (رحمه الله) لم ينسه بروائع قصائده التى نشرها فى (الاديب).

اننا الآن والألم الممض يحز فى نفوسنا نقول: إن (زكى المحاسنى) لم يخسر شيئا من الحياة، لانه ربح الحياة، بما لديه من ثروة أدبية، ومؤلفات نضرة، واخوان مخلصين، وأصحاب مقدرين، وطلاب ذاكرين.

كلنا نذكره كما يذكر الربيع بأزاهيره، والشمس بحرارتها ودفئها، والبدر فى نوره واطلالته، والأدب بشعره ونثره.

والآن ما هى حصة (الفردوس المفقود) و (المجد الموعود). أى بلاد (الاندلس) من ثمرات عبقرية الدكتور زكى المحاسنى؟ وهو الاستاذ المعنى بالأدب العربى وتاريخه منذ أقدم عصوره الى اليوم.

الحق انه لم يبخل فى مناجاة (الاندلس) والكتابة عنها، وأظهار أمجادها العربية الاسلامية. فله قصائد متعددة، أحيانا يمر عليها مسرعا، وأخرى يقف عندها متأملا!!

ومن أهم قصائده التى خصصها يراعه السيال، وفكره النير، وشاعريته السمحة، ثلاث قصائد:

الاولى: خذنى لأندلس.

الثانيـة: غرناطة.

الثالثـة: إشبيليا.

وفى هذه القصائد يجد الباحث أن الشاعر الدكتور (زكى المحاسنى)، قد ربط بين الفروسية العربية، والامجاد الاسلامية الباقية فى تلك الديار.

وهو لا يجد نفسه غريبا عن شعب الاندلس المعاصر فى (اسبانيا) اليوم. فان سمرة المصارع، وجمال حبيبته الفاتنة، وروح الشجاعة فيه عند مصارعة ثور هائج مخيف، كلها لدى الشاعر سمات عربية، وجرأة عدنانية.

والغريب أن أشعار المرحوم المحاسنى فى مجال الأندلس كلها تدور حول ربط الماضى بالحاضر وعلاقة كل منهما بالآخر. أما الذين وصفوا الاندلس ممن سبقوه أو عاصروه، فكان أكثر حديثهم هو عرض الماضى وعظمته والاشارة لبناته وصانعيه.

وفى قصائد (شوقى) وهو أبرعهم، والامير (شكيب رسلان) وهو أبلغهم، (وأبو الفضل الوليد) وهو أغزرهم!! وغير هذه الكوكبة الرائدة. كلهم وهم الذين زاروا الاندلس ومروا به لم يتطرقوا الى (مصارعة الثيران) فى اسبانيا، كأثر يدل على شجاعة الرجل الاندلسى، السائرة فى عروقه الدماء العربية.

أما شاعرنا (المحاسنى) فهو يختلف عنهم بصراحته، وقوة اندفاعه، وحرارة محبته. فليس فى شعره وعظ الواعظين، ولا فى قوله تدليس المدلسين، ولا فى خياله جنوح المنهزمين، ولا فى كلماته برودة المستضعفين.

ولا أدرى هل هناك من قصائد أخرى غير التى ذكرتها ستظهر

من آثار (المحاسنى) عن (الاندلس) ؟ أو فى نشيد من أناشيد (ملحمته العربية) . ؟

أرجو أن يكون ذلك!.

أما أسماء أبطال قصائده الاندلسية فهى:

(غرناطة) وقصرها الزاهى الاحمر!

و(قرطبة) ومسجدها السامق العظيم!

و(اشبيلية) ومنارتها الجميلة الشماء!

و (رامون) فيلسوفها وكاتبها الشهير!

و (انطونيو) مصارعها المغامر الجرئ!

و (ماريا) راقصتها البارعة الساحرة!.

أن الشاعر المحاسنى ـ طيب الله تربته ـ وعطر ضريحه. نراه أحيانا يعيد الصورة فى أغلب قصائده الاندلسية ويؤكد عليها فى أكثر مناظرها وشخوصها. ولا ينسى ايمانه القدسى، وصلواته المعطرة فى رحاب (مسجد قرطبة) . وفى أمجاد (قحطان) وذكريات (دمشق) !!.

أما أروع قصائده التى بين يدى: صورة، وأسلوبا، وبناء، ـ ووحدة. فهى قصيدة (خذنى لأندلس) وقد جاء فيها قوله:

يا بنت اندلس كرى بخاطرة
فخفق قلبك منهم فى دم سكبا

وأنت يا فتنة الأنظار طيف ندى
قد جال فيك من العرباء وانسربا
العين فيك بها كحل بأسوده
عيون غيد عرابٍ رفرفت هدبا
والقصر فى بهجة الحمراء آتية
أرواحه من خيام شدت الطنبا
فى أرض (قرطبة) لى مسجد عبق
بالطيب قرآنه ما زال مقتربا
ياليت لى سجدةً فى صحنه فأرى
تلك العواميد من فن البنا عجبا
كانها وقفت دهر الصلاة فما
تبغى السجود سوى فى موعد كتبا
حن الدم العربى اليوم فى دمها
فأطلعت فى هوى عدنان ما غربا

أما قصيدته الثانية فهى(غرناطة) وقد جاء فيها:

حييت (غرناطة) وازددت أكوابى
شرباً على نخبها واهتجت أحبابى
فقلت يا أخت أقوامى أما سنحت
لنا لقاءة مشتاق وغيّاب
يا دار أندلسٍ ما رُم فيك هوىً
لكن ترم قلبى بعد أو شاب

ألا يزال لعرب فيك منسرح
يروح بالروح من مسحور ألباب

وهل صهيل خيول من معاركهم
تموج فرسانها فى طى أحقاب

أرى المصلى على التكبير مائلة
صلاته فى تسابيح بمحراب

لابد من روعة الذكرى لواصفها
اذا تغنى بها فى جمع شراب

ومنها:

لملم لى العمر من بعد السنين فما
أحلى الحياة بزورات لأصحاب

.. قيثارة من صبايا لحن أندلسٍ
يهفو لنغمتها الموتى بأسباب

من (معبد) نبعها فى الدهر مائجة
بها التناغيم من إيحاء (زرياب)

فلم أجد طائفاً فى أرض (أندلس)
الا تولاه وجدان بإعجاب

أهلوك أعراقهم تسرى بمثل دمى
فلست عندهمو من قوم أغراب

وختمها بقوله:

(غرناطة) يامحيا السحر فى بلدٍ
جناتِ عدنٍ به حفت بأعناب
عليك منى سلام (الشام) طاب به
نفح الرياحين من جنات طياب

أما القصيدة الثالثة (أشبيليا) وهى دون القصيدتين السالفتين قوة، وسحراً وخيالا، فقد جاء منها قوله:

وجدى (باشبيلية) أبقى
فاكتم هواى وعاطنى صدقا
عربية فى وجهها شبهى
هلا رددت لها الهوى شرقا
شاهدت آثار الجدود بها
وتركت أحجاراً لما تلقى
حنت الى وطنى لتنشقه
والشام عطر أمية حقا
قالت تعال أريك مأثرة
بلدى بها فى عصره برقى
.. سأعود لا ألقى سوى حجر
من قومى الماضين يستبقى
تلك (الجيرالدا) وهى مرقدنا
فى الارض ليت دموعنا نسقى

فى برجها جرحى أضمده
جرحى يفوق قياسها عمقا

بقيت هناك كلمة تجول فى خاطرى، وتعمق جروحها فى قلبى. ترى متى ينصف العالم العربى أبناءه النوابغ، ورجال الفكر والادب فيه؟؟

ومتى تقوم الجامعات والمعاهد الثقافية فى دنيا الشرق العربى بالاهتمام بمن خدموا اللغة العربية، وتراثها، وتاريخها؟؟.

وهل تنهض (دمشق) وهى السباقة فى العصر الحديث الى الدفاع عن اللغة العربية، بتسمية كرسى للادب العربى باسم (الدكتور زكى المحاسنى) وهو أحد أبنائها من الطلائع فى بث روح المقاومة، وبعث القوة، والإباء، ضد خصومها، وأعدائها، ومستعمريها!!؟

إن اساتذة (الادب الحديث) فى الجامعات العربية مدعون لتكليف طلابهم تحت اشرافهم فى تحضير بحوث أو دراسات جامعية كل واحدة تتناول (الدكتور زكى المحاسنى) فى ناحية من نواحى أدبه.

فهذا يتولى دراسة شعره و (ملحمته العربية).

والآخر يبحث فى نثره ونقده وكتبه.

والثالث فى ترجماته ومراسلاته.

وعسى أن أرى يوما فى عالم النتاج الادبى الحديث، وعلى

واجهات مكتباته، ورفوف خزائنه، مجموعة من الكتب، وقد صدرت عن المرحوم الخالد (الدكتور المحاسنى) وعن العوامل فى كثرة انتاجه وعبقريته الثرة الغنية.

وانى لتعاودنى قبل أن أختم هذه المقالة المتواضعة. أبيات من قصيدة الشاعر المرحوم العراقى السيد (محمود الحبوبى) فى رثاء صديقه الشاعر المعروف (اليعقوبى) رحمه الله. حيث قال من قصيدته(والهفتاه) !!.

ويح الثرى كم طوى من أخوة كرموا
فانشر حديث علاهم أيها القلم
كانوا المصابيح أفكاراً مشعشعةً
يهدون من جهلوا منا بما علموا
كانوا بهم يتباهى العصر مزدهياً
كأنما هم سجايا العصر والشيم
كانوا كما يتمنى الناس أمثلة
للخير ـ أمثالهم فى الناس قد عدموا
كانوا الملائك أرواحاً مطهرةً
ما مسّها منذ كانت بعض ما يصم
كانوا الحماة لهذا الشعب ما تركوا
عنه الدفاع فقال الشعب بعدهم
كانوا يدى وسنانى كم طعنت بهم
خصماً، وقد جاء منى اليوم ينتقم

سلام الله على روحك المحاسنية الطيبة، يا أبا الطيبين!!

وتحية لك منى مشوبة بحسرة البعد، الذى كنت أمنى النفس يوماً فى أن يكون بعده لقاء. وأنت الذى أحبكَ الروح، قبل أن تراك العين.

***